دور السنوسية فى الجهاد الليبى

دكتور محمد نور محمد عارف

صاحب هذه الدعوة السنوسية السيد محمد السنوسى الخطابى الحسن الأدريسى ينحدر من أسرة عريقة ، فهو من سلالة الملوك الأدارسة الذين أسسوا الدولة الإدريسية(١) ،ونشأ صاحب هذه الدعوة فى بيت علم ودين وهو بيت آل سيدى عبد الله الخطابى ببلده مستغانم بالجزائر وقد ولد فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٠٢ أى ١٢ ديسمبر سنة ١٧٨٧(٢) وكان أبناء البيت السنوسى كلهم منتسبين إلى العلم ، فوالده وجده وأعمامه وأبناء أعمامه وكثير من نساء هذا البيت الكريم منتسبون إلى السيدة الزهراء وكانت السيدة فاطمة تعتبر من أفضل نساء عصرها متبحرة فى العلم منقطعة للتدريس والوعظ يحضر دروسها ومواعيظها الرجال . وكان والده السيد على يجمع إلى العلم والصلاح والتقوى والفروسية والرمابة إلى درجة قصوى . فلذلك تعلم الإبن العلوم الإسلامية وفهم روح الإسلام ولذلك لم يكن من الغريب أن يجنح السيد محمد بن على إلى العلم وأن يقتبس العلوم الفقهية الإسلامية والدراسات العربية وأن يتزود من هذه العلوم والدراسات فى أهم المؤسسات التعليمية فى الجزائر وفى جامع القرويين بفاس بالمغرب على يد علماء أجلاء أسهموا فى تدريس التوحيد والفقه والتفسير وبقية المواد الإسلامية والعربية الأخرى التى كانت رائجة فى معاهد العلم فى ذلك الوقت هذا بالإضافة إلى أنه قد درس التصوف على يد الشيخ أحمد التيجانى المتصوف صاحب الطريقة التيجانية بجامع القرويين بفاس(٣)، فلذلك أنبثقت فى نفسه الدعوة إلى إنكار البدع والقول بالاجتهاد .

---

(١) الدكتور محمد فؤاد شكرى . السنوسية دين ودولة . القاهرة ، دار الفكر العربى سنة ١٩٤٨ ص ١١

(٢) محمد عزه دروزة . نشأة الحركة العربية . بيروت، منشورات المكتبه العصرية ، صيدا سنة ١٩٤٩ ص ٧٦

(٣) الطريقة التيجانية تأسست فى الجزائر فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى وقد ساهمت بدور كبير فى نشر الدين الإسلامى بغرب أفريقيا .

ومما يدل على رجاحة عقله، حدث أنه ذات مرة أن قابله أحد الشيوخ وهو جالس فوق كثيب من الرمال وتبدو عليه دلائل التفكير ، فلما استوضحه السبب فى ذلك الوقت كان جوابه أنه إنما يفكر فى حال العالم الإسلامى الذى يبدو عن كونه قطيعاً من الغنم لا راعى له على الرغم من وجود سلاطينه وأمرائه ومشايخ طرقه وعلمائه مع أن هناك عدد كبير من المرشدين وعلماء الدين الموجودين فى كل مكان . فإن العالم الإسلامى لا يزال مفتقرا أشد الافتقار إلى رشد حقيقى يكون هدفه دفع العالم الإسلامى إلى غاية واحدة ونحو غرض واحد .

والسبب فى ذلك إنما يرجع إلى انعدام الغيرة الدينية لدى العلماء والشيوخ وانصرافهم إلى الخلافات القائمة بينهم وقد فرقتهم شيعا وجماعات ، فأصبحوا لايعنون بنشر العلم والمعرفة ولايعملون بأوامر الدين الحنيف وهو الدين الذى يدعو إلى التوحيد وجمع الكلمة .

وواضح أن الشيخ بالرغم من صغر سنه أنه كان يؤلمه ضعف وتخاذل المسلمين ، وحقا علينا أن نذكر أمرين هامين :

أولهما : أنه قد فطن إلى حقيقة العالم الإسلامى وعرف أنه مريض بل فى حالة تدهور مخيف .

ثانيهما : جموح العلماء والشيوخ وانصرافهم إلى الراحة والدعة وابتعادهم عن اجهاد الجسد والعمل فى نشر كلمة الله وإعلائهما . ومعنى ذلك أنه كان يدعو إلى اليقظة الإسلامية لنصرة الدين وإنعاش الإسلام وهو ما زال فى سن الطفولة .

مكانة الشيخ السنوسى العلمية :

لم يكتف بما حصله فى بلده من العلم فاتجه إلى محروسه (فاس)(٤) محط رجال

(٤) الدكتور محمد فؤاد شكرى . السنوسية دين ودولة ، مرجع سابق ص ١٣ .

العلماء ، ومكث بها سبع سنوات فأخذ العلم بالرواية من أفاضل علماء فاس مثل سيدى الشيخ حمودة بن الحاج وغيره ثم قرر الارتحال إلى مستغانم بلده ثم إلى بوسعدة فى الجزائر أيضاً فأقام بها بضعة شهور حدث فى أثنائها الغزو الفرنسى للجزائر وسقوط مدينة الجزائر فى أيدى الأجانب الفاتحين(٥)، وبعد ذلك رحل إلى قابس وطرابلس وبنغازى . ولم يكتف بذلك بل رحل إلى مصر لكى ينهل من علمائها .وكان واليها فى ذلك الوقت محمد على باشا منشىء الدولة الحديثة(٦) ولقد اشتهر من بين علماء مصر فى تلك الفترة الشيخ حسن العطار والشيخ القويسنى ولم يمكث طويلا فى مصر بل فضل الرحيل لأن آرائه كانت تحارب البدع كما أنكر طريقة المشايخ التقليدية(٧)وفى نفس الوقت كان يؤمن بطريقة الصوفية كما يؤمن بالتمسك بالكتاب والسنة وفى هذا يختلف عن كثير من دعاة السلفية . ويرد على من يستنكر مثل هذا الجمع بين طريقتى الأقطاب والعلماء فيقول : قد تسرى فى وهم من ليس له رسوخ قدم فى علم النوم أن أحوال الصوفية بعضها تباين لما عليه علماء الشريعة كما فاه منه بعض الجهلة تغاليا أو تنقيصا ، فاعلم أن سبيل القوم رضى الله عنهم أتباع النبى — صلى الله عليه وسلم — وكلما ازداد أحدهم اتباعا كلما ازداد كما لا يكون الكمال الكلى عندهم من كمال الأتباع وإلا فليس منهم أو ناقص عندهم فإن أعمالهم موزونة بميزان الشريعة فما رجح فيه قبلوه وما لا يرجح نبذوه(٨)وهذا مما دفع بعض المشايخ فى مصر إلى دس السم له للتخلص منه حقدا عليه فمن ضمن انتقاداته على حكومة محمد على أنه لم تعجبه انتصاراته على الدولة العثمانية ؛ لأنه رأى فى ذلك إضعافا للمسلمين وكسر حدتهم .

---

(٥) الدكتور محمد نور محمد عارف ، رسالة ماجستير ، غير منشورة عن السياسة البريطانية تجاه مصر سنة ١٨٧٦

(٦) دكتور جلال يحى . العالم العربى ، القاهرة ، دار المعارف سنة ١٩٧٥ ص ١٢٢

(٧) محمد عزه دروزه : نشأة الحركة القومية . مرجع سابق ص ٧٦

(٨) د . نيقولا زياده : ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاستقلال. القاهرة سنة ١٩٥٨ ص ٧٠

طريقة الدعوة :

كان إنشاء زاوية أبي قبيس بمكة المكرمة(٩)مؤذنا ببداية الدعوة الواسعة من أجل اتباع الطريقة السنوسية ، ثم قيام هذه الطريقة العتيدة لثبوتها فى الأعوام التالية فى أثناء حياة صاحبها ومؤسسها كشعلة من نور الإرشاد والهداية دعامة من دعامات الدين الصحيح فأخذ يدعو أتباعه البعد عن حياة الترف وعدم لبس الذهب والأحجار الكريمة إلا ما كان منها لحلى النساء ، ونهى عن شرب الخمر والتبغ والقهوة ، ولم يأمر بأية طقوس أو فروض جديدة فيما عدا دعاء وضعه ورده السنوسيين بعد ذلك ويسمى الحزب وكان يقول لأتباعه يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض(١٠)وكانت التربة التى نبتت فيها دعوته صالحة فازدهرت وامتدت فروعها إلى الأراضى الليبية وتأصلت بها جذورها . ولقد أقام السيد بالحجاز مدة ثم ارتحل عنه إلى المغرب ثم عاد إليه بعد ذلك فعاش بأرضه المباركة وصار يرسل الدعاة إلى أنحاء الوطن العربى فانتشرت دعوته واشتهرت طريقته وفى برقه استقر به المقام أخيراً فى زاوية جغبوب(١١)الشهيرة حتى وافاه الأجل المحتوم فى عام ١٢٧٦هـ ١٨٥٩م. ثم خلفه إبنه المهدى الذى تابع جهاد أبيه حتى وصلت الدعوة والطريقة فى عهده إلى ذروتها انتشاراً وقوة واتباعا — فشملت بلاد كورد تيستى ويرنوداندى وأدارنور وغيرها فى أفريقيا. وأصبحت بمثابة الحاكم الروحى والزمنى معا ، ولقد بلغ عدد الزوايا السنوسية التى أنشئت ١٤٦ زاوية(١٢)منها فى برقة فى عهد السيد المهدى حتى عام ١٨٨٧ ثمان وثلاثين زاوية وكانت أشهرها زاوية البيضاء (١٣) وبنغازى والقصرين والمرج وسوسة

---

(٩) د . رأفت غنيمى الشيخ : الزاويا السنوسية ، بحث مقدم بمناسبة الاحتفال بالعيد الذهبى للآثار المصرية سنة ١٩٧٥ ص ٧

(١٠) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة . مرجع سابق ص ٤٨

(١١) لوتروب ستورارد : حاضر العالم الإسلامى ، ترجمة حجاج ، دار الفكر العربى والنشر م ١ ج ٢ ص ١٤٠

(١٢) محمد الطيب بن ادريس الأنهب : السنوسى الكبير (عرض وتحليل لدعامة حركة الاصلاح السنوسى) القاهرة سنة ١٩٥٥ ص ٢٤

والغارية وهكذا(١٤)، أما فى طرابلس فقد بلغ عدد زوايا السنوسية ١٨ زاوية ومن أهمها الزورات التى يرجع تأسيسها إلى عام ١٨٨٥ وفى فزان بلغ عدد الزوايا ٢٢ ممتدة من جغبوب إلى غدامس ومن عداس إلى الكفرة ، ومن أهمها سنوان وغدامس .

ولم يقتصر انتشار الزوايا على إقليم ليبيا فحسب بل امتد وانتشر فى ربوع العالم الإسلامى ، فأنشئت فى تونس خمس زاويا مثل دوبرات وزاوية الحارث وفى بلاد الجزائر أسس السنوسية خمس زوايا فى مستغانم وما زونه وزاوية سيدى أحمد بن الناحر ، أما فى مراكش فقد تأسست بها ثلاث زاويا سنوسية فى طنجة وطيطون وفاس أما فى مصر ففى سيوه والزيتون والحدس تجاه الأسكندرية والنطرون والفرافرة هذا عدا زواياهم فى القطر المصرى نفسه فى الأسكندرية والقاهرة والسويس أما فى بلاد المغرب كان للسنوسيين ١٢ زاوية وفى مكة وجدة وينبع والمدينة وغيرها من مدن الحجاز ولم تكن الزوايا التى اكتسبت السنوسية شهرتها تكايا أو ملاجىء للدراويش المنقطعين عن الحياة للعبادة بل كانت بمثابة مؤسسات تعليمية وعسكرية وتربوية وحقلا للزراعة(١٥) والاستقلال من ناحية أخرى وكانت تقع معظم هذه الزوايا فى وسط الصحراء فأصبحت بذلك محطات للاستراحة يلجأ إليها المسافر أو الجائع التائه أو يلوذ بها الهارب من خوف أو ظلم ويكون له فيها حق الضيافة لمدة ثلاثة أيام على الأقل ، وكانت تقام عند الماء أو يمكن إستنباط الماء وتحاط بسور عالية وأبراج للدفاع ويقوم على كل منها شيخ متبحر فى العلم راسخ فى الطريقة والدعوة . وكان أتباع السنوسية يقررون الى الإمام السيد المهدى زكاة أموالهم كما كان يفرض عليهم من حين لآخر بعض الضرائب .

---

(١٤) د . محمد فواد شكرى . السنوسيه دين ودوله . مرجع سابق ص ٦٢ .

(١٥) لوتروب ستورارد . حاضر العالم الاسلامى . مرجع سابق ص ١٤٠ .

إدارة الزوايا السنوسية . طريقة العمل بها :

واتبع السيد بن محمد السنوسى نظاما دقيقاً فى إنشاء هذه الزوايا وترتيبها حتى غدت كل واحد منها بمثابة حكومة ولقد قسم السنوسيين إلى طبقات منهم المنتسبون وهم السواد الأعظم من أتباع الطريقة ومنهم الإخوان المريدون وهم الذين يقيمون فى الزوايا إقامة دائمة ويشتغلون بالزراعة ويكونون على استعداد للجهاد وهم عماد الطريقة .

ويختار مقدم لكل زاوية وهو شيخها والمسئول عنها فى كل الأحوال يفصل فى الخصومات وحكما فى كل الأمور وفى نفس الوقت منظم الدفاع عن الزاوية فى حالة الاعتداء عليها وكان مركزه محترما بين المجتمع (١٦) ، ثم يليه الوكيل مباشرة فى الوظيفة فهو المسئول عن زراعة الأرض والشئون الاقتصادية وزيادة على ذلك فكل زاوية بها شيخ لإقامة الصلاة وفى نفس الوقت عليه تعليم الأطفال القراءة والكتابة والقرآن الكريم والعقيدة الصحيحة وفى هذه الزوايا يتمتع كل من المقدم والوكيل بسلطة عظيمة على أهل الزاوية جميعاً والقبيلة معا ، وكلا من المقدم والوكيل مستمد تعليماته من مؤسس الطريقة أو من حلفائه ، فالأمر الذى يصوره المقدم أو الوكيل يكون معروفاً باسم السيد السنوسى أما هو أمره واجب الطاعة على الجميع . ولتوطيد مركز الزوايا اتبعت سياسة حكيمة بأن يكون اختيار شيوخ ورؤساء الزوايا الجديدة من أبناء المناطق التى بنى بها الزوايا بعد أن يقوم السيد بنفسه بتربيتهم وتعليمهم ، ولقد كانت أشهر زواياهم زاوية جغبوب التى تقع على مسافة يومين أو ثلاثة من الحدود المصرية إلى الغرب ، وكانت جغبوب قبل أن يختارها السيد محمد بن على السنوسى مقرا له واحة مالحة يأوى إليها اللصوص ومقترفى الآثام والدعارة ولا تجسر القوافل أن تمر بها خوفا من اللصوص وقطاع الطرق كما كان لها بعد استراتيجى فهى على مسافة تجعل من الصعب فى ذلك الوقت على السلطة العثمانية الممثلة فى حكام

(١٦) محمد الطيب الاشهب . مرجع سابق ص ٣٠

المدن الساحلية أن تهتم بشأنها أو أن تتابع حركاتها كما أنها تجعل من العسير على الحكومة المصرية أن تلتفت إلى نشاطها أو يحاول الوصول إليه ، أما بالنسبة للنفوذ الفرنسى الذى أخذ يتغلغل فى وسط أفريقيا ويقترب من الأملاك العثمانية الساحلية فهى فى أمان منه لبعدها الكافى عن متناوله مع اليقظة التامة لأعماله ونشاطه(١٧) .

ولكن بعد أت أختيرت أن تكون زاوية أصبحت مكانا آمن ومركز عبادة فلقد غرست بها الأشجار وأستنبطت العيون وكثرت الأبنية وأسست بها مدرسة كبيرة لتخريج مريدى الطريقة وقام بالتدريس بها نخبة ممتازة من شيوخ السنوسيين(١٨) إلى جانب ذلك تأسست زاوية أخرى فى الكفرة وهى زاوية التاج التى أقيمت على رأس الجبل ويقال له القارة ومن هذه الزاوية خرجت الدعوة السنوسية مع قوافل التجارة ومع الدعاة حاملين العقيدة الإسلامية الخالصة إلى بلاد وسط أفريقيا فى وادى نشاد ودارنور وغيرها — وكانت الزوايا السنوسية ذات طابع موحد من حيث الموقع والبناء ومن حيث الوظيفة التى تمارسها ومن حيث إدارتها لأن الإمام كان يختار مواقع الزاويا دائما فى الأماكن المرتفعة ليسهل الدفاع عنها ولكى يسهل الإشراف عليها وفى نفس الوقت الدفاع عنها ومما يروى عنه أنه خاطب الحاضرين عند بناء زاوية الجغبوب قائلا — الطير له عقل أم لا — فقالوا لا عقل له فقال : هو لا يضع بيضه إلا فوق جبل شامخ حتى لا يلحقه ذئب ولا ثعلب(١٩) .

وكان معنى ذلك كله إن أصبحت الزوايا السنوسية قلاع حربية تزخر بالمجاهدين المستعدين للتضحية(٢٠) فى سبيل الله ونصرة دينه وهذا هو موقفهم قبل أن تغزو إيطاليا ليبيا بجيوشها .

---

(١٧) التعليم الدينى فى ليبيا . البحث رقم ٤ بحوث وفد المملكة الليبية فى مؤتمر وزراء التربية والتعليم والوزراء المسئولون عن التخطيط الاقتصادى فى الدول العربية طرابلس سنة ١٩٦٦ .

(١٨) لوتراب ستورارد . المرجع السابق ص ١٤٠

(١٩) الطاهر الزاوى . مرجع السابق ص ١٦١ .

(٢٠) د. زاهر رياض استعمار أفريقيا القاهرة سنة ١٩٦٥ ص ١٥٩ .

العوامل التى جعلت إيطاليا تفكر فى غزو ليبيا :

أسفرت عملية انقسام العالم وبداية عملية إعادة اقتسامه بين الدول الاستعمارية فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عن سلسلة من الحروب والمنازعات والمصادمات الدولية صاحبها تعزيزات محمومة كانت الدول الاستعمارية تقوم بها بواسطة قواتها العسكرية البرية والبحرية علاوة على صيحات ونزعات رجعية .

ولقد أدى تزايد العدوان الاستعمارى وشموله فى العالم كله إلى اتساع مجالات التصادم بين المصالح الاستعمارية بحيث عمت مناطق وقارات جديدة . وقد اشتد الصراع بشكل واضح حول تقسيم القارة الإفريقية ؛ فنزلت فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠ ثم على تونس سنة ١٨٨١ واحتلت إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢ وبسطت سيطرتها على السودان سنة ١٨٩٩ وكل ذلك لم يكن سوى المرحلة الأولى من عملية اقتسام ممتلكات الامبراطورية العثمانية فى شمال إفريقية بين الدول الأوربية .

أما المرحلة الثانية فتميزت باشتداد الصراع وحدته بين ألمانيا(٢١)وفرنسا حول مراكش ذلك الصراع الذى انتهى سنة ١٩١١ لصالح الأوساط الاستعمارية الفرنسية . أما من جهة إيطاليا فإنها كانت تطمع فى الاستيلاء على تونس لقربها من شبه الجزيرة الإيطالية ولكثرة عدد الإيطاليين المقيمين بها ولوفرة خيراتها . ولكن فرنسا ضيعت عليها هذه الفرصة ، لذلك اتجهت إيطاليا بأنظارها إلى ليبيا(٢٢) بعد أن فشلت فى تجربتها فى الحبشة وأخذت تمهد لنشر نفوذها بشكل واضح .

حيث أن إيطاليا فى بداية القرن العشرين كانت فى أشد الحاجة إلى هذه التجربة بعد أن خطت البلاد خطوات واسعة على طريق التحول من بلد زراعى متأخر إلى بلد صناعى متقدم ؛ فازداد عدد المؤسسات الصناعية فى الفترة من

---

(٢١) اشترت فرنسا سكوت ألمانيا باحتلالها للمغرب الاقصى بأن منحت المانيا جزء من أفريقية الفرنسيه لها (الكمرون) .

(٢٢) الدكتور حسن سليمان محمود . ليبيا بين الماضى والحاضر . القاهرة . مؤسسة سجل العرب سنة ١٩٦٢ ص ٢٣٠ .

سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩١١ من ١١٧ ألف إلى ٢٤٣٩٨٧ ، مؤسسة وزاد تبعاً لذلك عدد العمال فى هذه الفترة فيها من مليون و ٢٧٥ ألف عامل إلى ٢,٣ مليون عامل ، وقد ساعد بناء السكك الحديدية والتوسع فى صناعة السفن والكليات الحربية فى تطوير صناعة الفلذات بدرجة كبيرة ، فازداد إنتاج حديد الزهر من ٤٢٥٧١ طناً فى سنة ١٩٠٠ إلى ٣٤٢٦٧٥ طناً فى نهاية سنة ١٩١١ ولذلك ازداد إنتاج الحديد فى الفترة هذه من ١٩٥١٨ طناً إلى ٢٠٣٢٢٣ طناً فلذلك انعكست أزمة الصناعة سنة ١٩١٠ على وضع الجماهير فى إيطاليا فزاد بؤسهم وتفشت البطالة بينهم علاوة على ذلك الكليات التى أصابت البلاد فى سنة ١٩١٠ و سنة ١٩١١ فانتشر فى جنوب البلاد (نابولى وسالرنو وغيرها) مرض الكوليرا الذى يرافق الجوع عادة . وفى نفس الوقت منعت الحكومة مساعدة البائسين والفقراء ولذلك اضطروا تحت وطأة الجوع على الهجوم على دور البلدية ، والمستشفيات للحصول على الخبز ولذلك ناضلت الحكومة نضالا مريراً لإعادة النظام . وظلت الحكومة فى حالة نزاع مع سكانها فى المناطق الجنوبية حتى بدأت الحرب التركية الإيطالية ، كما تفاقمت مشكلة الهجرة نتيجة لسوء التفاهم الذى حدث بين إيطاليا والأرجنتين بعد أن منعت الحكومة الأرجنتينية سنة ١٩١٠ دخول المهاجرين الإيطاليين إلى الأرجنتين بحجة أنهم ينافسون القوة العاملة المحلية(٢٣)إلى جانب كل هذه العوامل ازداد عدد السكان بدرجة كبيرة فلذلك أصبحوا فى حاجة ماسة للبحث عن أماكن جديدة وأسواق جديدة ومناطق استعمارية جديدة تعمل على تخفيف حدة الانفجار السكانى بها . فلذلك بدأت بعدة إجراءات ، واتخذت لذلك أساليب متعددة ومتنوعة منها لتخفيف حدة هذا الانفجار فلذلك اتجهت بأنظارها إلى ليبيا فعملت على الإكثار من فتح المدارس الإيطالية(٢٤)

---

(٢٣) ز.ب . باخيموتش . الحرب التركية الايطالية . منشورات الجامعة الليبية سنة ١٩١١ ص ٤٧ .

(٢٤) د . حسن سليمان محمود . ليبيا بين الماضى والحاضر . مرجع سابق ص ١١٣ .

المجانية فى طرابلس وبرقه وبنغازى لنشر ثقافتهم بين الأهالى تحت شعار الخدمة الانسانية ونشر العلم ؛ ثم لم يقتصر التعليم بهذه المدارس على الذكور بل أشركوا فيها الأناث وسرعان ما صاروا ينشئون إلى جانب هذه المدارس والمستشفيات (٢٥) والملاجئ الصحية (٢٦) للمرضى وللعاجزين للقيام على راحتهم وعلاجتهم من غير نفقات .

ثانيا اتخذوا من الاهتمام بالبحوث العلمية الجغرافية شعارا لدراسة طبيعية الأقطار الليبية لتنفيذ خطة الغزو والاستيلاء على البلاد فلذلك أرسلوا جملة بعثات لهذه الغاية كانت آخرها تلك التى رأسها (الكونت سفوزا) للتنقيب عن معدن الفوسفات ومن بين هذه البعثة ضباط من هيئة أركان الحرب الإيطالية فاستطاع أعضاؤها أن يضعوا المصورات والخرائط الحربية وأن يقوموا بدراسة حالة الأرض دراسة كاملة . لأن هذه البعثة المشئومة على البلاد ظلت فى الحقيقة تقوم بمهمتها المزعومة وتجوب فى أنحاء البلاد إلى وقت إعلان الحرب ولكن أعضاءها لم يتمكنوا من الإفلات فى النهاية فانكشفت حقيقة أمرهم أمام الجميع .

ثالثـاً : وكذلك اتخذ الطليان من الرغبة فى تعزيز العلاقات الاقتصادية ، التجارية بين بلادهم وبين الأقطار الليبية ذريعة لإرسال العدد الكبير من أبنائهم ورجالهم للتجارة ثم أنشأوا المصانع والمعامل التى كانت فى الواقع أشبه بالحصون ومخازن الزخيرة منها من أى شيء آخر . كما حصل الإيطاليون من الحكومة العثمانية فى عام ١٩٠٥ (٢٧) على امتياز بانشاء فرع لبنك دى رومة فى طرابلس وبرقة وصارت مهمة هذا النوع فى الحقيقة هو نشر الدعاية الإيطالية والتجسس على أحوال البلاد والأهلين فى ليبيا (٢٨) وعلاوة على التجسس أخذوا فى شراء الأراضى الزراعية من المواطنين بأثمان مغرية ثم طفق يغذى بأمواله الخاصة نشاط الدعاية الإيطالية .

---

(٢٥) د . محمد فؤاد شكرى . السنوسيه دين ودوله . مرجع سابق ص ١١٣ .

(٢٦) د . جلال يحيى ، العالم العربى الحديث ، الجزء الأول . مرجع سابق ص ٤٠٨ .

(٢٧) د . حسن سليمان محمود ، ليبيا من الماضى والحاضر ، مرجع سابق ص ٢٢٠ .

(٢٨) د . محمد فؤاد شكرى . السنوسية دين ودولة . مرجع سابق ص ١١٣ .

ثم استفادت الحكومة الإيطالية من نظام الامتيازات المعمولة فى أنحاء الامبراطورية العثمانية فلذلك أنشأوا فى طرابلس الغرب (بنغازى) مكتباً للبريد (٢٩) يرسلونه ما يرسلونه بواسطة ما يريدون من رسائل وتقارير من غير رقابة .

رابعـاً : أخذت الدعاية الإيطالية تعمل على نشر ما يحلو له بواسطة السفراء والصحف وذلك لتهيئة الرأى العام العالمى فى الحصول على موافقة(٣٠) إنجلترا وفرنسا على هذا الغزو المرتقب أضف إلى كل ذلك فان المنطقة الإقليمية اليهودية قامت بارسال بعثة إلى منطقة برقة لدراسة خطة لأجل إنشاء وطن قومى لليهود يكون تحت حماية تركيا ولكن المشروع لم ينفذ وذلك مما جعل إيطاليا تشعر بأن ليبيا أصبحت معمعاً للآخرين(٣١) فعليها أن تسرع بالإقدام إلى إتمام عملية الاستيلاء عليها . ولذلك أخذت إيطاليا تدعى مبررات لا قيمة لهـا مثل ما حدث فى عام ١٩٠٨ حيث قتل الأب جوستيو والأب بترينى وهما من الرعايا الإيطاليين ، وطال نظر قضيتهم أمام المحاكم العثمانية بشكل متعمد ضايق الحكومة الإيطالية ورضيت فى النهاية بتسوية الموضوع على طريقة العفو والنسيان(٣٢) ولذلك قامت صيحات الصحافة الإيطالية تعلن بأن أرواح إيطاليا وممتلكاتهم فى ليبيا تتعرض للخطر الداهم ، وبالإضافة إلى ذلك فلقد رأت إيطاليا على انتقال الأزمات ضد السلطات التركية مدعية فى ذلك قيامها بعرقلة المصالح الإيطالية فى ليبيا وطالبت الصحافة بالتدخل العسكرى السريع لإعادة الهيبة إلى إيطاليا .

وفى هذا الجو أخذت تتصاعد الصيحات للغزو ، كما أخذت الحكومة الإيطالية من قبلها تستعد فى كتمان للاستعدادات العسكرية الكبيرة فى موانيها ، ومن العوامل التى ساعدت الإيطاليين على ذلك كله هو وجود الحالة السيئة التى

---

(٢٩) د . جلال يحيى ، المغرب الكبير المرجع السابق، ص ٧١٥ .

(٣٠) د . حسن سليمان محمود . ليبيا بين الماضى والحاضر ، مرجع سابق ص ٢٢٠ .

(٣١) د . محمد فؤاد شكرى ، السنوسيه دين ودوله ، مرجع سابق ص ١٠٧ .

(٣٢) سليم قبعين ، تاريخ الحرب العثمانية الايطالية ، الطبعة الحجازية ، القاهرة سنة ١٩١٢ ص ١٨

سببت فى الفوضى والارتباك فى شئون الدولة العثمانية قبل حدوث الانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ فلم تلق الولاية أى عناية أو اهتمام من جانب الحكومة فى الاستانة(٣٣) وأساءت الإدارة العثمانية فى اختيار الحكام ورجال الإدارة فى طرابلس الغرب بأن اختارتهم من أسوأ العناصر القيادية فى الدولة العثمانية ولذلك وقع عبء الإدارة وشئون الحياة فى ليبيا على كاهل السنوسيين وحدهم ولم تكتفى السلطة العثمانية بهذا الإهمال بل عمدت إلى مضايقة السنوسيين وتضييق الخناق عليهم ، أضف إلى هذا أن جمعية الاتحاد والترقى قد استأثرت بالسلطة بعد فوز الثورة فى يوليو سنة ١٩٠٨ وكانت تغفل عمداً شئون الولاية بل خرج زعماء الاتحاديين بأقوال تدل على أنهم لا يريقون دم عسكرى واحد فى ولاية طرابلس الغرب من الإيطاليين أو الفرنسيين . فلذلك كان الحكم العثمانى ثقيلا على عاتق السكان فى طرابلس وبرقة ، مما أدى إلى تخلف الولاية عن بقية ولايات الدولة العثمانية وكان سكانها من القبائل العربية والبربرية وبعض من القبائل الزنجية فى الجنوب والذين تبلغ عددهم الإجمالى حوالى مليون نسمة يشتغلون بالزراعة وتربية الماشية ولقد وصل النظام القبلى فى القسم الساحلى(٣٤) وحتى فى بعض الواحات الداخلية إلى درجة كبيرة من التحلل أدى ذلك إلى ظهور فئة كبار الملاك الذين هم غالباً من أصل عربى وأحياناً من أصل تركى وكذلك كبار التجار والمرابين من جهة وفى الجانب الآخر السواد الأعظم من الفقراء وكذلك صغار المزارعين الذين كانوا يتخيطون فى قيود التبعية .

أما فى المناطق الداخلية والجبلية منها على وجه الخصوص فقد ظل التنظيم القبلى محافظاً على وجوده مع ما يصاحب ذلك من ملكية مشتركة للأرض والرعى ، كما كانت العبودية موجودة أيضاً — حيث كانت الحرب خصوصاً مع القبائل الزنجية فى إفريقيا الاستوائية . والسودان أحد مصادرها الرئيسية ولقد احتفظ عدد

(٣٣) د . محمد فؤاد شكرى ، السنوسية دين ودولة ، مرجع سابق ص ١١٤ .
(٣٤) ز.ب باحتيموفش ، الحرب التركية الايطالية ، مرجع سابق ص ٣٥ .

كبير من القبائل ببعض بقايا نظام الأمامة(٣٥) ، وكان من نتيجة انخفاض ومستوى القوى المنتجة أن أصبحت القبائل العربية والبربرية تعيش بشكل منعزل بعضها عن بعض .

أضف إلى كل ذلك فقد أهملت الدولة العثمانية شئون البلاد الاقتصادية فتدهورت الأحوال من سيء إلى أسوأ وارتفعت أثمان حاجيات المعيشة ارتفاعاً فاحشاً ، فبات الأهلون من جراء ذلك فى ضنك وبلاء عظيمين ومع هذا لم تفعل الحكومة العثمانية شيئاً لتخفيف حدة الأزمة الخانقة التى تركت الأهلين يتضرعون جوعاً حتى اضطر الكثير منهم إلى الهجرة إلى تونس(٣٦) والبلاد الأخرى بينما ازدحمت عاصمة الولاية بالشيوخ والأطفال والنساء والمرضى يلحون فى طلب الخبز والقوت ومات من الجوع عدد كبير منهم والحكومة لا تبدى حراكاً لتخفيف ويلات القحط والمرض ، بل عمدت أيضاً إلى تجريد البلاد من الموظفين الأكفاء الخبيرين بلغة الأهلين وعاداتهم ولم تكتف الدولة العثمانية بهذا التقصير بل عمدت إلى استدعاء قوادها المخلصين الذين كانوا يشرفون على استحكامات الولاية ونظام الدفاع عنها وحدث كل هذا قبل بداية الاعتداء الإيطالى بفترة قصيرة . وذلك على الرغم من تحذيرات سفيرها فى إيطاليا حسين كاظم الذى أخطر الوزارة منذ يناير سنة ١٩١١ بنوايا الطليان الحقيقية وتدميرهم من أجل الإغارة على طرابلس الغرب . فكانت وزارة الخارجية العثمانية تضرب بهذه التحذيرات عرض الحائط وتهمل تقارير سفيرها ولا تفحصها ، مع أن إبراهيم باشا كان دائب النشاط لا يدع فرصة تمر دون أن يحذر دولته من نوايا إيطاليا ويبين حقيقة مطامعها فى الأقطار الليبية .

---

(٣٥) ز.ب باخيموفش ،الحرب الايطاليه ، مرجع سابق ص ٣٥ .

(٣٦) د. محمود الشنيطى ، قصة ليبيا ، القاهره النهضة المصرية ص ١٣٨ .

وهكذا كانت البلاد عند بداية العدوان الإيطالى من غير والى أو حاكم ليتولى أمرها ويدير شئونها ، وفى نفس الوقت نجحت إيطاليا فى تضليل رجال الوزارة العثمانية وعلى رأسهم الصدر الأعظم إبراهيم باشا حقى الذى اتهم بالتواطىء مع أعداء الدولة فكانوا جميعا لا يتوقعون أى سوء من جانب إيطاليا بل وجدوا فى تصريحات الحكومة الإيطالية فى مناسبات عدة مصدراً لهذا الاطمئنان ، ولذلك كانت دهشتهم عظيمة حقاً عندما فاجأتهم إيطاليا بانذارها المشئوم فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١ أى بعد أربعة أشهر فقط من تاريخ وزير خارجيتها بالمحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية .

وكان الإنذار الإيطالى شديد اللهجة اتهمت فيه إيطاليا الحكومة العثمانية بأنها كانت تبدى عداء دائماً نحو الحركة الإيطالية الشرعية فى طرابلس وبنغازى حتى أصبحت الحالة فى طرابلس الغرب عظيمة الخطورة بسبب التحريض العام ضد الرعايا الطليان ولما بات لا تجدى نفعاً أية مفاوضات للوصول إلى تسوية ودية أو إعطاء إيطاليا أية امتيازات من أجل إنهاء هذه الأزمة المختلفة ، فقد رأت الحكومة الإيطالية نفسها ، كما قالت مرغمة على المحافظة على شئونها ومصالحها ولذلك قررت أن تحتل طرابلس وبنغازى احتلالا عسكرياً .

أما عن القوة العسكرية العثمانية التى ستواجه الغزو العثمانى فكانت فى منتهى الضعف والمهانة ، فقد كان الجيش العثمانى فى طرابلس يتكون من ١٥ إلى ٢٠ ألف جندى وضابط بالإضافة إلى فرقة من الأهالى تتراوح بين أربعين وخمسين ألف(٣٧) يتدربون على السلاح حتى صار فى إمكانهم معاونة الجيش النظامى إلى حداً ما ، وجاءت وزارة حقى باشا وسيرت جزءاً كبيراً من الجيش النظامى إلى اليمن(٣٨) فى حين طلب الأهالى الانتظام فى الجندية ورغم اعتماد مجلس النواب للميزانية

(٣٧) د . حسن سلمان محمود ، ليبيا بين الماضى والحاضر ، القاهرة مؤسسة سجل العرب سنة ١٩٦٢ ص ٢٤٠

(٣٨) أمين سعيد ، الدوله العربية المتحده ، مطابع عيسى الحلبى وشركاه بمصر سنة ١٩٣٦ ص ٤٥٠

الخاصة بذلك إلا أنه لم ينفذ هذا الطلب ولم يهمل أمر التجنيد فحسب بل أهمل أيضاً أمر استدعاء الاحتياطى (الرديف) وأهمل التدريب إهمالا تاماً هذا بالنسبة للقوات البرية ، أما بالنسبة للأسطول التركى فإن قواه الأساسية كانت ترابط بالقرب فى بيروت ولم يكن فى استطاعته أن يعوق تقدم الحملة الإيطالية أو يتصدى لها حيث إنها كانت تتكون إجمالياً من أربعين ألف جندى بأسلحتهم ومعداتهم وطائراتهم التى استخدمت لأول مرة فى الحروب ومعنى ذلك التفوق الرهيب من حيث الاستعدادات الحربية عن الأسطول العثمانى وبالإضافة إلى هذه القوة العسكرية الضاربة أحضروا معهم ، الحفارات الضخمة لحفر الآبار مع اصطحاب الحفارين اللازمين وغير ذلك من الفنيين وسائر المعدات الأخرى التى تحتاجها الإعاشة فى ليبيا(٣٩) حتى لايلتجئون إلى الاستعانة بالأهالى فى تغذيتهم ؛ ويتضح لنا من كل هذا أن تركيا لم تكن لديها الاستعداد الكافى للدفاع عن الأقاليم فى شمال إفريقيا ، وقد ظهر ذلك واضحاً فى استانبول ضد حكومة حقى باشا. ومن التهم الموجهة إليه بأنه متواطئاً مع إيطاليا زواجه من إيطالية(٤٠) هذا إلى جانب الضعف فى القوة العسكرية وعدم تقدير المسئولية .

موقف السنوسيين من الحرب :

ولما باتت لا تجدى نفعاً أية مفاوضات للوصول إلى تسوية ودية أو إعطاء إيطاليا أية امتيازات من أجل إنهاء هذه الأزمة المختلقة ، لذلك تحركت الزوايا السنوسية وهبت للدفاع عن شرف ليبيا ولعبت دوراً أساسياً وبارزاً فى تنظيم الحركة المعادية للأتراك وللإيطاليين ، وبدأ المجاهدون فى شن هجماتهم على مواقع الغزاة ، حيث قاموا يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٩١١ بالهجوم على القوات الإيطالية من الأمام بينما هاجم سكان المناطق الواقعة داخل الجهة المحتلة ، وكانت معركة الهانى شارع الشط التى تعرض فيها العدو باعترافه إلى خسائر كبيرة وفادحة جعلته يقوم بأعمال انتقامية ضد الأهالى فقتلوا عدداً كبيراً منهم وقبضوا على عدد آخر .

---

(٣٩) أمين سعيد ، الدوله العربية المتحدة ، مرجع سابق ص ٤٥٠ .

(٤٠) محمد إبراهيم لطفى ، تاريخ حرب طرابلس ، مطبعة بنها بالقاهرة سنة ١٩٤٦ ص ٢٨

ولما ضاقت بهم السجون أرسل بعشرات منهم إلى سجون إيطاليا(٤١) ولكن ذلك لم يضعف من عزيمة وقوة المجاهدين فى القتال ، ولما اشتدت المقاومة صدرت الأوامر للإيطاليين باطلاق النار (٤٢) على المارة فى الشوارع وإخلائها بل استخدم الإيطاليون السلاح الأبيض فى قتل المواطنين حيث كانوا عزل من السلاح ولم يرحموا النساء والأطفال ولقد كانت هناك مجازر ارتبطت باسم الاحتلال الإيطالى لطرابلس من أيامه الأولى وأثر ذلك على علاقة الأهالى بالمحتلين ولقد صعب على الإيطاليين بعد ذلك أن يتفاهموا مع الأهالى (٤٣)ولقد دلت هذه الأعمال على أن إيطاليا دولة متبربرة رغم ما ادعته من ادعاءات بأن مجيئها إلى طرابلس لنشر المدنية وإزالة التخلف ، ولكن بالرغم أن القوات الإيطالية كانت مزودة بمدفعية حديثة للميدان والجبال فانها لم تتقدم كثيراً من السواحل إلى داخل البلاد ويرجع فى ذلك الفضل فى نضال المجاهدين السنوسين الذين تربصوا بهم فى كل موقع ومكان ولقد استطاعت السنوسية أن تنظم نفسها تحت قيادة أنور باشا . فقد استخدم هذا القائد التركى من تكوين المجموعات بحيث أن تكون كل مجموعة خمسة عشر مقاتلا وتكون أيضاً من قبيلة واحدة وفى خيمة واحدة ينامون فيها ويرأسهم عريف أونائب وكان يخصص لكل خيمة امرأة تقوم بخدمة الجنود وغسل ملابسهم وإعداد الطعام لهم أثناء رحلتهم وحمل الماء والطعام اللازم للمقاتلين فى ميدان المعركة إلى جانب إثارة همم الرجال أثناء المعركة وتضميد جراح المصابين ورثاء الشهداء منهم وذكر محاسنهم ، ولقد كان فى معسكر عند أبى منصور عدداً من المجاهدات يتراوح من ٤٥٠ ، ٥٠٠ مجاهدة وهذا يبين مدى مقاومة المرأة الليبية بجانب المجاهد الليبى .

---

(٤٢) د . جلال يحى ، العالم العربى الحديث ج ١ دار المعارف ، مرجع سابق ص ٣٠٨ .

(٤٣) د . جلال يحى ، العالم العربى الحديث ، مرجع سابق ص ٤٠١-٤٠٢ .

وهناك حادث قد أحدث ثورة عارمة فى نفوس المجاهدين جعلهم يستبسلون فى سبيل نصرة الدين والوطن ويتلخص هذا الحادث المروع فى أن الطليان عندما نزلوا فى البر بعد انسحاب القوة العثمانية عسكرت جنودهم فى أطراف المدينة ، وفى ١٥ أكتوبر بينما تركزوا ناحية المنشية خلفهم انتهز المجاهدون هذه الفرصة وهاجموا المنشية بقيادة بعض الضباط العثمانيين وفى ليل ١٢ أكتوبر صمدت الحامية الإيطالية حتى الصباح وفى نفس الوقت انسحب المجاهدون إلى مواقعهم القتالية ولكن عندما وصلت النجدة الإيطالية عثروا على قتلى من الإيطاليين فى النسيان فلذلك صبوا غضبهم على الأهالى الأبرياء وألصقوا بهم تهمة اغتيال جنودهم من غير أن يكلفوا أنفسهم مشقة تحقيق هذا الحادث وبناء على ذلك استباح الجنرال (كافيفا) ناحية المنشية لجنوده ثلاثة أيام قتلوا فى أثنائها من الأهالى عدداً يتراوح بين الأربعة آلاف والسبعة آلاف ، وهتكوا عرض النساء وألقوا فى غياهب السجون وفى الثكنات العسكرية وفى مدرسة الصنائع مئات من الرجال والنساء ونفوا من العرب إلى جانب ذلك كله حوالى تسعمائة مجاهد .

وهكذا أضافت إيطاليا بهذا الحادث عمل حركت به مشاعر الجميع للانتقام للضحايا الأبرياء وغسل الإهانات التى لحقت بشرفهم ثم ازدادت كراهية العرب للطليان بدرجة لم تعد تشمر بها بعد ذلك أية محاولات لإزالة هذه الكراهية أو تخفيف حدتها .

وليت فظائع إيطاليا انتهت عند مذبحة المنشية هذه ولكن هؤلاء الغزاة الذين أعلنوا وضع طرابلس وبرقة تحت السيادة الإيطالية التامة فى ٦ نوفمبر سنة ١٩١١ وسرعان ما صاروا يعتبرون المجاهدين لهذا السبب مجرد عصاة أو ثوار خارجين على الحكومة الشرعية فى مقاومتهم ويستحقون لذلك الإعدام شنقاً أو رمياً بالرصاص، إذا ما وقعوا فى أيديهم فطفقوا من ثم يشنقون الرجال زرافات(٤٤)

(٤٤) محمد عزه دروزه ، الوحده العربيه ، المرجع السابق ص ٤٤٠ .

وجداناً من غير تحقيق أو محاكمة فى طرابلس ودرنه وغيرهما من المدن ويقتلون بطل عربى يبلغ عمره الرابعة عشرة فما فوق ويتهمونه بمحاربة الطليان سواء اشترك فى أعمال المقاومة أو لم يشترك(٤٥) .

كل هذه الأعمال جعلت جموع المجاهدين السنوسيين يتدفقون على المعسكر العثمانى أن سمعوا خبر اعتداء الطليان على طرابلس وبرقة . ولقد ظل العرب فى المرحلة الأولى ينتظرون بفروغ الصبر وصول أولاد سليمان إلى المعسكر العثمانى وإلى ميادين الجهاد ويتوقعون أيضاً حضور مجاهدى فزان وصناديد الطوارق ، وعندما حضرت هذه الجموع زخرت بهم معسكرات المجاهدين ، ولقد كان مجىء هؤلاء المجاهدين من أتباع السنوسية وأنصارها اطمئناناً لأهل طرابلس لأنهم يعلمون أنهم الفرسان ورجال الله فى الميدان ، وتدفقت جموع السنوسية من زواياها كالسيل الجارف على ميدان القتال فى طرابلس وفى منتصف يناير سنة ١٩١٢ قال السيد أحمد الشريف كلمته لأهل طرابلس وجميع العرب فأصدر إنذاره المشهور يحث فيه الطرابلسيين والبرقاويين من أهل ليبيا على الجهاد ضد العدو المعتد ويعلن فيه نبأ اعتزامه النزول بنفسه إلى الميدان على رأس قوة كبيرة من المجاهدين .

ولقد نقش نداء السيد السنوسى الكبير هذا على راية من الحرير حملها المجاهدون فى طرابلس من مكان إلى آخر من القبائل الضاربة فى الجنوب خصوصاً .

فكان من أثر هذا النداء أن تدفقت جموع المجاهدين والمتطوعين على المعسكرات فكان المعسكر يعج بجموع المجاهدين من الزاوية والعجيلات وزنزور ونصراته وأولاد بوسيت وأولاد سليمان ثم مجاهدى فزان والطوارق ، ثم لم يكتف السيد أحمد الشريف بذلك بل أعد نجدة خاصة لتعزيز قوات العثمانين والمجاهدين القرب وفى ٢٥ مارس سنة ١٩١٢ دخلت نجدات السيد أحمد الشريف إلى

---

(٤٥) د . محمد فؤاد شكرى ، السنوسية دين ودولة ، المرجع السابق ص ١٣٢ .

العزيزية مسلحة بالبنادق والحراب والسيوف وتحمل معها تحرك نجدات أخرى لا تزال تجد السير فى طريقها إلى المعسكر العثمانى وكان يوم وصول نجدات السيد هذه يوماً مشهوداً فى تاريخ الجهاد فى طرابلس ولقد اعترف السلطان العثمانى نفسه بهذه الجهود التى قام بها السيد أحمد الشريف من أجل تخليص الأقطار الليبية وتحريرها فأهداه فى هذا الشهر نفسه (مارس سنة ١٩١٢) سيفاً ونيشان مرصعاً بالجواهر مكافأة للسيد ومقدراً لجهوده .

ولذلك كانت زعامة السيد أحمد الشريف وجهود السنوسيين أكثر وضوحاً وأعمق أثراً فى سير الجهاد وضد الإيطاليين .

ولم يكتف السيد أحمد الشريف بهذا بل أعد منشوراً كبيراً(٤٦)أرسله إلى مشايخ الزوايا ورؤساء القبائل لكى يحرضوا العرب على الجهاد ، ولقد طلب السيد أحمد من كل عربى بلغ سن الرابعة عشرة حتى الخامس والستين أن يتوجه إلى ميدان القتال مزوداً بمؤنته وسلاحه وأن يخضعوا جميعاً لأوامر أنور بك بصفته نائب السلطان وقائداً عاماً ، ثم بعث بخطاب إلى أنور بك يعرفه أنه قد كتب للإخوان وحرضهم على المساعدة وعدم المخالفة فى إعلاء كلمة الله ، وكان منشور السيد أحمد الشريف أكبر حافز للعرب على المضى فى الجهاد ، كما كان لوجود كبار السادة السنوسية مثل السيد محمد إدريس والسيد محمد رضا والسيد محمد عابد فى المعسكر العثمانى أثر كبير فى التفاف العرب المجاهدين حول القائد العثمانى ودارت معارك كثيرة بين الطليان والسنوسيين ولكن أهم هذه المعارك معركة النخلتين .

يقول الأمير سكيب أرسلان فى ١٢ مارس : جرت معركة الفويهات الشهيرة وكان بسببها أن ٢٠٠ عربى دخلوا بين استحكامى الفويهات والبركة فثار فى وجههم الطليان واشتد الحرب وأحاط الطليان المائتى مجاهد من العرب ولقد بذل القائد عزيز المصرى مجهوداً ضخماً لكى يساعدهم ولكنه لم يتمكن من مساعدتهم

---

(٤٦) محمد الأخضر ، رفع الستار عما جاء فى كتاب عمر المختار ، مطبعة حجازى ، سنة ١٩٣٦ ص ١٨ .

بسبب القنابل التى كانت تتساقط على رءوسهم كالمطر من البر والبحر فلبث هؤلاء المجاهدون يقاتلون مستميتين إلى أن حل الظلام ولذلك نجا منهم جزء لحق بالمعسكر الذى بعد قتال استمر طول النهار ويقال : إنه نجا ٨٠ رجلا من المائتين أما الطليان فقتل منهم ألف وخمسمائة مقاتل منهم ٢٨ ضابط برتب مختلفة وأصيب عدد كبير من الضباط بالجنون من هول تلك الموقعة .

وكان استمرار إيطاليا فى القتال قد اعتمد أولا وأخيراً على ضعف الحامية العثمانية الموجودة فى الولاية ولقد ظهر عجز الحكومة التركية فى أن تمد يد المعونة الفعلية إلى ولاياها الطرابلسيين أو أن ترسل إليها الإمدادات وذلك نتيجة ضعف الأسطول العثمانى وعدم تمكنه من المرور من الحصار البحرى الإيطالى المرابط فى الموانى الليبية ، كما تعذر إمداد المجاهدين عن طريق البر سواء عن طريق تونس حيث أنها كانت تخضع للحماية الفرنسية وكان يهم الحكومة الفرنسية الا تصطدم بالحكومة الإيطالية نتيجة لمرور اللواءات الحربية أو المتطوعين إلى ميدان الحرب فى طرابلس ، ولذا فإنها قد أصدرت تعليماتها إلى السلطات(٤٧) الفرنسية فى تونس بمنع مرور الضباط الأتراك والمحاربين وشحنات الأسلحة والذخائر إلى طرابلس ، أما عن طريق تصرفاتها كانت تحت عبء الاحتلال البريطانى ولذلك كان موقف الحكومة نتيجة لضغط إنجلترا عليها كان سلبياً .

أما عن موقف الشعب المصرى فقد أحدث احتلال إيطاليا لليبيا هياجاً عنيفاً وسخطاً كبيراً فصدرت المنشورات من الحزب الوطنى تدعو إلى التطوع ، وطلب إسماعيل صديق سكرتير مجلس الوزراء من المويلحى بك رئيس تحرير جريدة اللواء ضرورة كتابة أية مقالات فى جريدته عن موقف المصريين من تركيا وواجبات المسلمين فى الجهاد الدينى .

وبالرغم من تحذير الحكومة البريطانية والفرنسية للشعب التونسى والمصرى من الاشتراك فى الجهاد الليبى إلا أن العناصر المتحررة قد اشتركت وناضلت ومعهم

---

(٤٧) د . جلال يحى ، العالم العربى ، مرجع سابق ، ص ٤١٥ .

عزيزى المصرى(٤٨) الذى بذل كل ما فى طاقته فى ميادين القتال بالرغم ما ألصق به من تهم فى هذه الحرب(٤٩) ومعنى ذلك أن كل الحرب وقعت على كاهل المجاهدين السنوسيين وحدهم لأن السلطات التركية قد اضطرت إلى عقد معاهدة لوزان فى أكتوبر سنة ١٩١٢ وتنص على :

أولا : وقف القتـال .

ثانياً : تسحب تركيا جنودها من ليبيا .

ثالثاً : تعيين ممثل للسلطان فى البلدان ويمنح لقب حماية السلطان ويقوم بحماية المصالح العثمانية ، ويحتفظ السلطان لنفسه بحق تعيين القاضى وقد أعلن السلطان استقلال ليبيا الداخلى فى حين أصدر ملك إيطاليا منشورا يذكر فيه أن أهالى ليبيا قد أصبحوا تحت السيادة الملكية الإيطالية(٥٠) .

أما عن موقف السيد أحمد الشريف السنوسى فقد كان رأيه عن الصلح على طرفى النقيض ولا نقبل صلحاً بوجه من الوجوه إذا كان عن هذا الصلح تسليم البلاد للعدو ولذلك قاد الكفاح ضدهم بعد خروج الأتراك من برقة وطرابلس واشترك اشتراكاً فعلياً فى المعارك التى دارت بينهم ومما هو جدير بالذكر أن مندوب تركيا أبلغ السيد أحمد الشريف بالجغبوب أنه قد أسند إليه أمراً للأمة الليبية إلى سيادته وأخبره أيضاً بأن الخليفة قد منح الأمة الطرابلسية (ليبيا) استقلالها تاركاً لها الحق فى أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها ويمكن اعتبار هذا الحادث بداية استقلال الإمارة السنوسية . وهكذا وقع عبء المعركة على المجاهدين السنوسيين بعد أن تخلت عنهم الدولة العثمانية .

---

(٤٨) د . صلاح العقاد ، ليبيا المعاصره ، منشورات معهد البحوث والدراسات العربيه ، القاهرة ، سنة ١٩٦٨ ص ٩٣ .

(٤٩) ز .ب . باخيموتش ، الحرب التركيه الايطاليه ص ٨٣ .

(٥٠) د . حسن سليمان محمود ، ليبيا بين الماضى والحاضر ، مرجع سابق ص ٢٢٥ .

ولقد استطاع السيد أحمد الشريف السنوسى بأن يرسم خطة موحدة لمقاومة المستعمر وكان من نتائج هذه الخطة خروج الإيطاليين من فزان وانتصار الليبيين فى موقعة الفرضايية وعندما قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وخروج موقف إيطاليا وأصبح عليها من الضرورى الاحتفاظ بقواتها المسلحة ، انتهز السنوسيون فرصة هذا الانسحاب واستعدوا لمواجهة الجهات الشرقية من إقليم طرابلس ، فلذلك أرادت تركيا أن تستغل هذه الفرصة واتصلت بالمقاومة فى ليبيا ، فلذلك أرسلت بعض رجالها وعلى رأسهم سليمان الباونى لمناهضة الحكم الإيطالى فى طرابلس ، أما فى برقة فقد تمكن الأتراك والألمان من الضغط على السيد أحمد الشريف لكى يهاجم الحدود المصرية لكى يشغل الإنجليز بهذه الجهة فى الوقت الذى كان فيه الألمان والأتراك يرغبون فى غزو مصر من جهة — قناة السويس .

ولقد تم هذا الهجوم من جهة المغرب فى أواخر سنة ١٩١٥ ولكنه كان هجوماً فاشلا إذ تمكن الإنجليز من القضاء عليه ، ولذلك اضطر السيد أحمد الشريف بعد هذه الهزيمة أن يسلم قيادة الحركة السنوسية لصاحبها الشرعى وهو السيد محمد إدريس ثم أبحر السيد الشريف من ليبيا فى غواصة ألمانيا إلى تركيا سنة ١٩١٨

وعندما تولى السيد محمد إدريس زعامة الحركة السنوسية كانت مهمته فى برقة شاقة وذلك لانقطاع طريق التموين من مصر ومعاناة البلاد بسبب أحباس المطر وغارات الجراد وانتشار الأوبئة فرأى بثاقب فكره أن أسلم طريق هو مهادنة مؤقة لعمل اتفاق يمكن أهل برقة من استعادة نشاطهم وتحسين حالتهم وفى سنة ١٩١٦ فى الزوتيتية اجتمع مندوبو السلطات الإيطالية وقدموا السلطات الإنجليزية مع السيد محمد إدريس ولكن المفاوضات لم تنجح لعدم اعتراف السلطات الإيطالية بمطالب إدريس الشرعية ثم استؤنفت بعد ذلك المفاوضات سنة ١٩١٧ مرة أخرى فى عكرمة قرب طبرق وانتهت بالاتفاق على الشروط الآتية

١ ــ أن يقف الإيطاليون عند النقط التى كان يحتلونها فى أبريل سنة ١٩١٧ ويتعهدوا بألا يجددوا مراكز عسكرية على أن يكون هذا الشرط ملزماً ــ للسنوسية أيضاً .

٢ ــ أخذت إيطاليا على نفسها تعهدا بأن تبقى على المحاكم الشرعية وليتولى أمر النظر فى القضاء علماء يثق بهم ينظرون فى قضايا الأحوال الشخصية .

٣ ــ قبلت إيطاليا أن تفتح المدارس العلمية والمهنية فى برقة وأن تعتنى بتعليم القرآن الكريم على أن يقوم به متخصصون(٥١) .

٤ ــ قبلت إيطاليا أن تعيد الزوايا وأراضيها وأن تعفيها من الضرائب .

٥ ــ تدفع الحكومة الإيطالية مرتبات لمشايخ الزوايا التابعة لها على أن يقوم هؤلاء بدور الوسيط بين السلطات الإيطالية وأهل البلاد وقت الحاجة .

٦ ــ تختار السلطات الإيطالية شيوخ الزوايا فى منطقتها من لائحة يقدمها السيد إدريس تحتوى على ثلاث أسماء لكل زاوية(٥٢) وبالرغم من هذه المعاهدة أو الصلح إلا أن الإيطاليين لم يلبثوا أن نقضوا عهدهم سنة ١٩٣٣ ، فعاد النضال ثانياً وتعرض أهل البلاد والسنوسيون لضربات شديدة وأبلى هؤلاء بلاءاً عظيماً فى الجهاد . وقد اضطر الإمام محمد إلى اللجوء إلى مصر ودار النضال فيهم وكان يشتد حيناً ويخف حيناً آخر إلى أن نشبت الحرب العالمية الثانية التى دخلها الإيطاليون إلى جانب الألمان ، واتصل الإمام بالإنجليز واتفق معهم على التضامن فى الحرب ضد الإيطاليين مقابل اعترافهم باستقلال ليبيا بزعامته بعد الحرب ، ولقد أبلى المجاهدون الليبيون والسنوسيون فى الحرب بلاءاً عظيماً ، وهرب كثير من المجندين فى الجيش الإيطالى وانحازوا إلى المجاهدين فكان هذا وذاك سبب من أسباب انهيار المقاومة الإيطالية الألمانية فى جهة شمال إفريقيا وحينما وصلت الحرب

---

(٥١) د . حسن سليمان محمود ، ليبيا بين الماضى والحاضر ، مرجع سابق ص ٣٣٣ .

(٥٢) محمد عزه دروزه ، نشأة الحركه العربيه ، مرجع سابق ، ص ٧٧ .

أوزارها هب الإمام ورجاله للمطالبة بالاستقلال وناصرته الدول العربية والإسلامية في نطاق هيئة الأمم حتى تحقق مطلبهم في ديسمبر سنة ١٩٥٠ رغم ألاعيب الإنجليز الذين حاولوا نقض وعودهم وإبقاء ليبيا تحت استعمارهم وتقرر إعلان ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة في آخر سنة ١٩٥٦ في ٢٤ كانون الأول من هذه السنة ، ثم إعلان ملكية السيد محمد إدريس باسم المملكة الليبية المتحدة التي تألفت من مناطق برقة وطرابلس الغرب وفزان في نطاق اللامركزية الواسعة .

ومنذ أول سنة ١٩٥٢ صارت هذه الدولة حقيقة قائمة تمارس سلطاتها الحرة في إقليم حر في بلد حر .

وهكذا استطاعت الحركة السنوسية أن تخلص ليبيا من براثن الاستعمار ولقد ساعدها على ذلك حسن استخدامها للظاهرة الدينية أحسن استخدام في الدفاع عن الوطن والمواطنين .

وهكذا انتهى بحثي المتواضع وعلى الله قصد السبيل .

الدكتور
محمد نور محمد عارف

المصادر والمراجع

١ ــ أمين سعيد ، الدولة العربية المتحدة ، مطابع عيسى الحلبي وشركاه بمصر سنة ١٩٣٦ .

٢ ــ سليم قبعين ، تاريخ الحرب العثمانية الإيطالية ، المطبعة الحجازية سنة ١٩١٢.

٣ ــ دكتور جلال يحيى ، العالم العربي ، المدخل ، القاهرة ، دار المعارف سنة ١٩٧٥ .

٤ ــ دكتور جلال يحيى ، المغرب الكبير في العصور الحديثة ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٦ ..

٥ ــ الدكتور حسن سليمان محمود ، ليبيا بين الماضي والحاضر ، مؤسسة سجل العرب سنة ١٩٦٢ .

٦ ــ د . صلاح العقاد ، ليبيا المعاصرة ، القاهرة ، منشورات معهد البحوث والدراسات المصرية سنة ١٩٦٨ .

٧ ــ ز . ب. باحتموفتش ، الحرب التركية الإيطالية ، منشورات الجامعة الليبية.

٨ ــ محمد الطيب إدريس الأشهب السنوسي الكبير (عرض وتحليل لدعامة حركة الإصلاح السنوسي (القاهرة سنة ١٩٥٥ .

٩ ــ محمد إبراهيم لطفي ، تاريخ حرب طرابلس ، القاهرة ، مطبعة بنها ، سنة ١٩٤٦ .

١٠ ــ محمد الأخضر ، رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار ، القاهرة ، مطبعة حجازي سنة ١٩٣٦ .

١١ ــ الدكتور محمد فؤاد شكري ، السنوسية دين ودولة ، القاهرة ، دار الفكر العربي سنة ١٩٤٨ .

١٢ — محمد عزة دروزة ، نشأة الحركة العربية ، بيروت ، منشورات المكتبة المصرية سنة ١٩٤٩ .

١٣ — محمد عزة دروزة ، الوحدة العربية ، القاهرة ، المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر سنة ١٩٧٧م .

١٤ — لوتروب ستورارد ، حاضر العالم الإسلامى ، ترجمة حجاج ، القاهرة ، دار الفكر العربى والنشر م ١ ج ٢ .

١٥ — نيقولا زيادة ، ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاستقلال ، القاهرة سنة ١٩٥٨ ، البحوث والرسائل .

١٦ — د . رأفت غنيمى الشيخ ، بحث مقدم بمناسبة الاحتفال بالعيد الذهبى للاثار المصرية سنة ١٩٧٥ .

١٧ — د . محمد نور محمد عارف ، رسالة الماجستير — غير منشورة سنة ١٩٧٦.

١٨ — محمود الشنيطى ، قضية ليبيا ، القاهرة ، النهضة المصرية .

* * *